الانفتاح اللغوي
وأثره في ضبط اللسان العربي

إعداد:

د. محمد بن محمود فجَّال

الأستاذ المشارك في اللغة والنحو

السنة التحضيرية – جامعة الملك سعود

تاريخ التحكيم: ٧/ ١٠/ ١٤٣٦ تاريخ الإجازة: ٢١/ ١٢/ ١٤٣٦

المستخلص:

يقف كثير من متعلمي اللغة العربية من الناطقين بغيرها حائرين أمام فهم صنفين من العبارات. الأول: ما يكثر على ألسنة المتحدثين العرب في المجتمع ووسائل الإعلام ولم يرد في المعاجم، والثاني: ما يصعب إدراك دلالاته العميقة. وقد عالجت هاتين المشكلتين بمبحثين، الأول: تناولت فيه قضية التطور الدلاليّ في اللغة والصوتيّ والصرفيّ والنحويّ، وضرورة انفتاحنا على قبول الجديد وتدوينه ضمن معايير، وإتاحته للمتعلمين. والثاني: تناولت فيه طبيعة النظام اللغويّ في اللغة العربية، ودور بنية اللفظ والسياق في تحديد المعنى وإثرائه.

الكلمات المفتاحية:

الانفتاح اللغوي – التطور اللغوي – نشأة اللغة العربية – تعليم اللغة العربية للأجانب – التعبيرات الاصطلاحية – المستويات اللغوية – المعاجم اللغوية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

يزدادُ الإقبال في هذا العصر لأسبابٍ عِدِّة على تعّلم اللغة العربية، وتسعى كثيرٌ من المؤسسات التعليمية لتوفير مناهج حديثة تقدّمُ المهارات اللغوية للدارسين بأنسب الأساليب التعليمية والتربوية.

وتبقى مع ذلك مشكلة عدم فهم الدارسين لكثير من العبارات التي لم تستوعبها الكتب الدراسية، مع أنها تَرِدُ بكثرة في الوسائل الإعلامية المقروءة والمسموعة، وتتردَّدُ على ألسنة زملائهم العرب في كل مكان، وعند العودة إلى المعاجم اللغوية لا يجدونها، ولدى السؤال عن معناها ومعرفته يَقِفُ بعض اللغويين موقف المتحفظ من إتاحة استعمالها بحجة أنها دون مستوى الفصاحة؛ لأنها مُحدثة، ولم يستعملها فصحاء العرب قديمًا، أو أنَّ العبارة واضحة المعنى السطحيّ، دون إدراك جوانب الثراء الدلاليّ فيها من خلال السياق، وهذه المشكلة الأخيرة تخص الدراسين المبتدئين، وغالبًا لا تكون عائقًا عند المتقدمين.

وقد جاء هذا البحث «الانفتاح اللغويّ وأثره في ضبط اللسان العربي» موضحًا طبيعة اللغة ومستوياتها، وكيفية فهم دلالات المفردات والتراكيب وتجددها.

ويهدف البحث إلى ما يأتي:

١- تعريف القارئ بكيفية نشوء اللغة العربية وتطورها.

٢- توضيح طبيعة النظام اللغوي، وعلاقة المستويات اللغوية بعضها ببعض.

٣- عرض نماذج من التطور الدلالي لبعض المفردات والتراكيب.

ويجيب عن الأسئلة الآتية:

١- كيف ظهرت اللغة العربية بهذا القدر الكبير من المفردات والتراكيب؟

٢- لماذا تتعدد دلالات المفردات والتراكيب؟

٣- كيف يمكن فهم دلالة الكلام؟

وقد اتبعت في البحث المنهج الوصفيّ التاريخيّ في الاستدلال والاستنباط.

أمَّا المستوى اللغويّ الذي هو محلّ الدراسة في المبحث الأول فهو اللغة العربية الفصيحة المعاصرة، وفي المبحث الثاني اللغة العربية الفصحى.

أما عن الأعمال العلمية التطبيقية السابقة، فأنسبُ وأوسعُ ما اطَّلعت عليه هو «معجم اللغة العربية المعاصرة» للدكتور أحمد مختار عمر (وفريقه) (٢٠٠٨م)، فقد وضعوا معجمًا كبيرًا، تزيد صفحاته عن ثلاثة آلاف، دَوَّنوا فيه كل ما وصلوا إليه، من خلال الصحف والمجلات الدولية، ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية، والقصص، وكتابات الأدباء والمفكرين والعلماء، وما يتردد من عبارات التراث في العصر الحديث، وما أنتجته مجامع اللغة العربية، وكتب التعبيرات اللغوية والتصحيح اللغوي، والمعاجم المسحية، في كل مجالات المعرفة كالسياسة والاقتصاد والأدب والفن والحضارة والمجتمع وغيرها، إضافة إلى التوسع في الأقيسة، وفيه ما يربو على مئة مليون كلمة ومثال في المفردات والأساليب ودلالاتها.

ثم يليه «معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمُوَلَّد» لأحمد أبو سعد (١٩٨٧م)، و«معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة» لمحمد حسن عقيل موسى (١٩٩٩م)، «معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة» للدكتور محمد محمد داود (٢٠٠٣م).

وكما هو واضح أنَّ هذه المعاجم قد بذلت جهودًا كبيرة لتدوين الألفاظ والتراكيب المعاصرة، ولكنها لم تربط بين ضرورة هذا التدوين وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، ولم أجد فيما أعلم دراسة تناولت ذلك.

وقد أدرتُ البحث على «**المقدمة**»، و«**التمهيد**» الذي تحدثت فيه عن ثلاثة أمور، هي:

١. المصطلحات الواردة في البحث.
٢. نشأة اللغة العربية.
٣. تطور اللغة العربية عبر العصور.

وعلى مبحثين، هما:

المبحث الأول: التطور الدلالي للمفردات العربية وتراكيبها.

المبحث الثاني: النظام اللغوي في اللغة العربية الفصحى.

ثم أوردتُ النتائج والتوصيات في «الخاتمة»، ثم «قائمة المراجع».

أسأل الله -عزَّ وجل- السداد فيما أكتب، فهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد

١ - المصطلحات الواردة في البحث:

استعملتُ في هذا البحث بعض المصطلحات، مثل: (التطور، والانفتاح، والضبط)، ولئلا يُفْهَم منها غير ما أُريد أذكر ما أعنيه فيها، فـ **(التطور)** أعني به التغيّر بوجه عام، ويمكن تسميته (ابتداعًا) أو (تجديدًا) (Innovation)[(١)].

والتغيُّر الذي يطرأ على اللغة يكون في مستوياتها جميعها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية، لكنه أكثر ما يكون في المستوى الدلالي، ويظهر بداية في الكلام الفعلي عند أفراد مجموعة معينة، ثم ينتقل إلى مرحلة انتشار التغيُّر، وبكثرة استعماله يعلق في الذهن، ثم بعد مدة طويلة يُعترف به من خلال تدوينه في المعاجم الحديثة[(٢)].

والتطور لا يعني – على سبيل المثال في المستوى الدلالي – اندثار الدلالة القديمة للمفردة بل قد تبقى كما هي، وقد يقل استعمالها، وقد تندثر تمامًا وقد يكون الاستعمال الجديد أجود، بِغَضِّ النَّظر عن معيار الجودة، وقد يكون أَرْدَأَ.

واللغة العربية بفضل القرآن الكريم قد حافظت في مسيرة تطورها على معظم الدلالات القديمة، وما زال كثيرٌ منها يُستعمل، ولو على مستوى العلماء وكثير من المثقفين، أمَّا هجر المعنى القديم فقد حَصَلَ في حدودٍ أقلّ، ويُعدُّ هذا من مزايا اللغة العربية وتكيُّفها مع العصر ومستجداته.

أمَّا **(الانفتاح اللغوي)** فأعني به قبول هذا التطور أيًّا كان مصدره بعد تطابقه

(١) «دور الكلمة في اللغة» (١٥٣).

(٢) «دور الكلمة في اللغة» (١٥٣ – ١٥٤).

مع الأسس اللغوية الصحيحة، قبولَ استعمالٍ، وقبولَ تدوينٍ.

أما (**الضَّبْطُ**) فأريد به الإحكام والإتقان.

ويمكن تقسيمه إلى قسمين، ضبط ظاهر: وهو ضبط المعنى اللغوي، وضبط باطن: وهو ضبط الدلالة السياقية[١].

فيكون المراد من (ضبط اللسان العربي) هو إتقان دلالات العبارات التي يتحدث بها العرب في مستوياتها اللغوية جميعها.

٢ - نشأة اللغة العربية:

أهم ما أبتغيه من الحديث عن نشأة اللغة العربية هو أنها حصلت بتدرّج، ولم تأتِ دفعة واحدة، وقد تعددت الروايات في تفاصيل نشأتها، من ذلك ما رُوِي أنَّ سام بن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما سكن اليمن بعد الطوفان بدأت لغة أحفاده بالتطوُّر والتغيُّر عن اللغة السريانية، حتى ظهرتْ أُولى معالم اللغة الجديدة (العربية) على لسان الحفيد الخامس «يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن قينان بن سام» فهو أول من تكلَّم بالعربية[٢]، وإليه يُنسب العرب، قال البحتري[٣]:

نحن أبناءُ يعربٍ أعربُ النا ... س لسانًا وأنضرُ الناس عودًا

فالعربية منسوبة إليه ومشتقة من اسمه.

وهي لغة متطورة عن أصول قديمة، فالله - عز وجل - علَّم آدم اللغات كلَّها،

---

(١) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (١٣٤٦) بتصرف.

(٢) «المعارف» (١: ٢٧).

(٣) «ديوان البحتري» (٥٩٥).

وبعد تفرُّق أبنائه وأحفاده في الأرض تمسَّك كلُّ ولد وأحفاده بلغةٍ، وتطورت مع الأيام والسنين[١]، وقيل[٢]:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفـر

وكنتم قديمًا ما لكم غير عجمةٍ كلامٍ وكنتم كالبهائم في القفر

وبعد حصول سيل العَرِم عام (٤٤٧م) تقريبًا في اليمن هاجر الناس إلى شمال الجزيرة وغربها.

وقيل: سكنتْ خزاعة الحجاز، وسكنتْ غَسَّانُ الشام[٣].

ولا شكَّ أنَّه قبل السيل كان هناك سفر للتجارة أو غيرها، وتأثُّرٌ وتأثير في اللغات بين القبائل، وبعد الهجرة من اليمن زاد اللقاء بين القبائل وحصل تأثُّر أكبر، وبدأت تظهر معالم لغةٍ عربيةٍ متطوِّرةٍ أكثر في الحجاز، وهي ما تسمَّى بلغة قريش، وهم أحفاد إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (العرب المستعربة)، التي أخذتْ معالمها من لغة أحفاد يعرب (العرب العاربة)[٤]، وأَخَذَتْ كثيرًا من الكلمات من لغات البلاد الأخرى، التي كان أهلها يأتون إلى الحجاز لزيارة الكعبة المُشرَّفة، فتأثرت لغة قريش بلغات القبائل والبلاد المجاورة، وأصبحت لغةً مكتملةَ المعالم.

---

(١) «الخصائص» (١: ٤١).

(٢) نُسب في «وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولدِ قحطانَ بنِ هود» (٢٧) لحسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولم أجده فيما بين يدي من نسخ ديوان حسان.

(٣) «الكامل في التاريخ» (١: ٥٨٤).

(٤) العرب العاربة هم أهل اللغة العربية في الأصل. والعرب المستعربة هم الذين لم تكن لغتهم عربية، بل كانت عبرانية، ثم دخلوا في العربية. «المختصر في أخبار البشر» (٤: ٢٢).

وعلى أيّة حال، فإنَّ مما هو مؤكد أنَّ اللغة العربية لم تظهر فجأة مكتملة، وهذا شأن اللغات، بل تكوَّنت بتدرّج، وأخذت ألفاظًا من لغاتٍ عِدَّة، فقد قال «ابن فارس»: كانت قريش مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها، إذا أتتهُم الوُفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نَحائزهم وسَلائقهم[١] التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب[٢].

وقال «الفارابي» عن لغة قريش: كانت قريش أجود العرب انتقادًا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنَها مسموعًا وأبينَها إبانةً عمَّا في النفس[٣].

٣ - تطور اللغة العربية عبر العصور:

هذا شأن اللغات، فهي تتطور عبر الزمن، فاللغة العربية القديمة تفرعت إلى لهجات عديدة، أصبحت كل منها قبل الإسلام لغةً منفصلة عن الأخرى، عاش منها لغتان فقط: العربية والعبرية. وعن اللغة اللاتينية تفرَّعت خمس لهجات، أصبحت فيما بعد اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية. وعن اللغات الجرمانية الأم تفرعت سبع لهجات، أصبحت اليوم اللغات الهولندية والإنجليزية والألمانية والدانماركية والنرويجية والسويدية والإيسلندية[٤]، فاللغة العربية كأيّ لغة أخرى قابلة للتطور والانفتاح ومسايرة

---

(١) النحائز، والسلائق، جمع نحيزة وسليقة، أي: الطبائع.

(٢) «الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسُنَنِ العرب في كلامِها» (٢٨).

(٣) «الاقتراح في أصول النحو وجدله» (١٩٢).

(٤) «أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة» (٢٢٦).

مستجدات العصور، وبناء على ذلك يمكننا تقسيم العصور التي مرَّت فيها اللغة العربية إلى أربعة عصور، هي:

العصر الأول: هو العصر القديم الذي نشأت فيه اللغة العربية على لسان «يعرب بن قحطان» قبل حصول سيل العَرِم، ويمكننا تسمية اللغة التي كانت في هذا العصر: (اللغة العربية القديمة)، ولا شكَّ أنها قد تغيَّرت كثيرًا.

العصر الثاني: هو العصر الذي استقرت فيه اللغة بقبيلة قريش بمكة المكرمة، الذي وردت فيه أشعار المعلَّقات، ويُسمَّى العصر الجاهلي، ونسمي اللغة العربية فيه: (لغة الشعر الجاهلي).

العصر الثالث: هو العصر الإسلامي الذي يبدأ بنزول القرآن الكريم وبعثة سيدنا محمد ﷺ، ونُسمي اللغة التي كانت فيه: (فصحى القرآن الكريم).

ففي هذا العصر تطورت كثير من الألفاظ في دلالاتها، وأخذت معنى جديدًا لم يُعرف من قبل.

ويشمل ذلك المصطلحات الدينية والشرعية والفقهية واللغوية، فالألفاظ كانت موجودة قبل الإسلام، ولكنها كانت تدل على معان أخرى، فتحولت إلى الدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة[١].

وبالمقابل اندثرت ألفاظ وتراكيب، مثل: «أنعم صباحًا وأنعم ظلامًا»، و«أبيتَ اللعن»، وقول المملوك لمالكه «ربي»[٢].

---

(١) «اللغة العربية كائن حيّ» (٣٦).

(٢) «اللغة العربية كائن حيّ» (٣٧).

العصر الرابع: هو العصر الحاضر، ونُسمِّي اللغة التي فيه (الفصحى المعاصرة)، أو (الفصيحة).

فقد استجدَّت ألفاظٌ ومصطلحات وتعبيرات كثيرة، إلى جانب هجر كثير من ألفاظ فصحى العصر الإسلامي، نحو: أَوْجَفَ، ومخضود، ودهاقًا[١] وغيرها، وظهور ألفاظ كانت غير مستعملة بكثرة.

ومن ذلك يتبيَّن لنا أنَّ اللغة العربية لغةٌ متطورةٌ عبر العصور، منفتحةٌ على معطيات الحضارات ومستجدات الأزمنة، تُثْرَى مفرداتها يومًا بعد يوم، ولم تقف عند حدٍّ معيَّن، فقد استوعبت ألفاظ الدين الإسلامي، واستوعبت مخترعات العصر الحديث ومستجداته، وأخذت من الفارسية كلمات كثيرة، ومن الرومية، والسريانية، والنبطية، والحبشية، والهندية[٢]، وما زال تنامي هذا الثراء اللغويّ مستمرًا إلى يومنا هذا.

وقد عُني اللغويون في العصر الحديث بتطور اللغة، فوضعوا القرارات

(١) انظر كتاب «كلمات القرآن التي لا نستعملها – دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية» لـ د. محمد الجوَّادي.
قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحشر ٦) أي: أفاء على المسلمين من أموال الكفار بغير إعمال خيل ولا ركاب وإنما بالصلح. فالغنيمة ما حصلوا عليه بإيجاف خيل وركاب، أي: بحرب. والفيء ما حصلوا عليه بغير إيجاف. فمعنى (أوجف): أَعْمَلَ. انظر «لسان العرب» (وجف).
وقال تعالى: ﴿ فِي سِدرٍ مخضود ﴾ (الواقعة ٢٨) فهذا وصف لسدر الجنة وهو بغير شوك. ومعروف أنَّ السدر شجرٌ صحراوي فيه ثمر مفيد وشوك. أما المخضود فهو مكسور الشوك. انظر «المفردات في غريب القرآن» (خضد ١٤٩).
وقال تعالى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ (النبأ ٣٤) أي: مُفْعَمَة. «المفردات في غريب القرآن» (دهق ١٧٣). أو: ملأى. «لسان العرب» (دهق).
(٢) انظر «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» (١: ٢٢٧ – ٢٢٩).

المجْمَعِيَّة، وصَنَّفوا المعاجم اللغوية، كالمعجم الكبير، والمعجم الوسيط، والمعجم الوجيز، وهذه الثلاثة من إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمُنجد في اللغة للويس المعلوف، ويبذل مجمع اللغة العربية بدمشق منذ عام (١٩١٨م) جهودًا كبيرة في رصد الجديد وفي التعريب، وكذلك مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أُسِّس عام (١٩٣٢م).

ولذلك علينا أن نستمر في العناية بها، ولا نوقف نهضتها وإثراءها عبر تعاقب العصور، بمراجعة كل جديد وتنقيحه ثم تدوينه؛ ليتمكن مَنْ أراد تعلُّم هذه اللغة من إدراك قديمها وحديثها ومعاصرها.

وبذلك نصل إلى أنَّ من أراد تعلمها وإتقانها، فإنَّه ينبغي له الاطلاع على القديم والحديث والمعاصر من معاجم الألفاظ والمعاني.

المبحث الأول
التطور الدلالي للمفردات العربية وتراكيبها

تتطور دلالة المفردات اللغوية والتراكيب باستمرار، وتُستحدث مفردات جديدة تساير التقدم العلمي التكنولوجي والحضاري والاجتماعي، وتستجد تعبيرات اصطلاحية، وتُستعمل المفردات في سياقات جديدة تُثري دلالتها؛ لتطور مناحي الحياة في العلوم والفنون والسياسة والاقتصاد والأدب والفن والديانات والحضارة والرياضة والطب والبيئة والتكنولوجيا والتعليم والمجتمع.

فقبول هذا التطور ليس استسلامًا للواقع بقدر ما هو حاجة مُلِحَّة لتلبية متطلبات الحياة، فقد كان الإنسان العربي يُسَمِّي كلَّ عضو في الراحلة باسم خاص، والآن تقفُ أمامَنا سيارة حديثة أو طائرة، فهل يمكننا أنْ نوفي أجزاءَها حقَّها في الأسماء؟[١]

وقبول مجامع اللغة العربية هذا التطور ليس عشوائيًّا، بل قد وضعوا ضوابط زمانية ومكانية لقبول التطور[٢].

وهذا التطور ينشأ تبعًا لظروف كثيرة، منها:

١- انتقال اللغة العربية من جيلٍ إلى جيل.

٢- تأثر اللغة العربية بلغات أخرى في عصر الانفتاح المعرفي والثقافي الكبير على العالم أجمع.

٣- التأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والفكرية... إلخ.

---

(١) انظر مقال «الوضع اللغوي وهل للمحدثين حقٌّ فيه؟».

(٢) انظر «تطور اللغة العربية المعاصرة بين ضوابط القدماء وجهود المحدثين» (٤٢٧).

٤- النشاط الثقافي والعلمي والأدبي في البلاد العربية[١].

وعليه، فإنَّ التَّطور الدلاليّ يمكن حصوله في أنواعٍ ثلاثة، هي:

١- تطور في وظائف الكلمات وتراكيب الجمل، كالقواعد النحوية والصرفية، ومَنْ يقارن بين قواعد اللغة العربية الفصحى واللهجات المحليَّة الحديثة يجد أنَّ اللهجات المحلية تجرَّدت من علامات الإعراب واختلفتْ فيها قواعد الاشتقاق. يقولون: (الوَلَدْ راحْ)، و(الوَلَدِينْ رَاحُوا)، و(الأَوْلاد راحُوا).

٢- تطوُّر في الأساليب اللغوية، كالتطور الحاصل في أساليب المحادثة الشفوية، وفي أساليب الكتابة، وبمقارنة أساليب الكتابة المعاصرة مع الأساليب القديمة نجد اختلافًا بيِّنًا، وكذلك الحال في مقارنة أساليب الكتابة الحديثة، العادية أو الإلكترونية، فقد استجدَّ الكثير، ولا يخفى ما للترجمة والاختلاط مع الشعوب وتطور التفكير وحاجات المجتمع وظروف الإلكترونيات الحديثة من أثر كبير في مستجدات أساليب الكتابة.

٣- تطور في معنى الكلمة نفسها، كتخصيص معناها العام، أو تعميم مدلولها الخاص، أو الخروج عن معناها إلى آخر لعلاقةٍ مجازيةٍ ما، ثم تستعمل فيه على سبيل الحقيقة لا المجاز، أو تستعمل في معنى غريب عن الأوَّل بدون أية علاقة.

ولهذا التطور خواص، هي[٢]:

١- أنه يسير بِبُطْءٍ وتدرّج.

٢- أنه يحدث بفعل اجتماعيٍّ جمعيٍّ لا فرديٍّ.

٣- أنه جَبْريُّ الظواهر، فمهما حاول سدنةُ اللغةِ الحفاظَ عليها من

---

(١) انظر «علم اللغة» (٢٤٩).

(٢) «علم اللغة» بتصرف (٣١٤ - ٣١٦).

المستجدات، فإنه لا يمكن لهم إيقاف هذا التطور في الدلالات والقواعد الذي ظهر في اللهجات المحلية الحديثة.

٤- أن الحالة التي تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالبًا بالحالة التي انتقلت منها بإحدى العلاقتين (المجاورة) أو (المشابهة).

٥- تقيده غالبًا بزمانٍ محدَّدٍ ومكان خاصٍّ، فيندر حصول تطور دلاليٍّ يلحق اللغات جميعها في صورة واحدة ووقت واحد.

٦- انتشاره عند أفراد المجتمع جميعهم بالتدرج.

وقد يَسْأَلُ سائلٌ عن أثر هذا التطور في جودة اللغة وبقائها، فأقول:

اللغة العربية كانت محكومة بتيارين من المحافظة والتجديد، يكفلان لها نوعًا من الاتِّزان[١]، فلو بقيت مُحافظة على ما كانت عليه في أوَّل عهدها لأصبحت الآنَ لغةً أثرية، تشبه اللاتينية والسنسكريتية، ولَسَادَتْ اللهجات العربية الحديثة، وازدادت على مَرِّ الزمان بُعدًا عن الأصل الذي انسلخت منه[٢]، ولو تطورت ونُسِيَ التراث الذي كان في أوَّل عهدها لانقطع حاضرها عن ماضيها، وهذا يجعلها تنصهر في العولمة لا أصالة فيها ولا ثراء في مفرداتها وتراكيبها.

لكنَّ اللغة العربية استطاعت بمرونة فائقة أن تتحاشى أزمة موقفها بين القديم الأصيل والمُحدث الطارئ، بتطويع دلالات الألفاظ والتوسع في المجاز، لكي تؤدي المعاني الجديدة التي لم يكن للعرب عهدٌ بها من قبل[٣].

وهي بذلك قد حافظت على كثير من ظواهرها مقارنة بشقيقاتها من اللغات

---

(١) «لغتنا والحياة» (٧٢).

(٢) «التطور اللغوي» (٧).

(٣) «لغتنا والحياة» (٧٣).

السامية، كالعبرية مثلًا، فقد ابتعدت وتغيَّرت عن السامية الأولى[١].

وكان الفضل في تحقق هذه الموازنة يعود إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، اللذَيْنِ حفظا أصالة اللغة العربية على مَرِّ العصور، فلا يمكن لأيِّ لغةٍ أنْ تبقى بعد مضيِّ أكثر من ألف عام كما كانت في أوَّل عهدها، إلا اللغة العربية فقد حازت على هذا الفضل[٢].

وأقتصر في هذا المبحث على الحديث عن جانب تطور دلالة المفردات، والتعبيرات الاصطلاحية، فأعرض بعض الأمثلة؛ لإيضاح الفكرة التي أهدف إليها.

ففي كل عصر من العصور التالية للعصر الجاهلي استجدَّت ألفاظ وتراكيب جديدة، واندثرت أخرى، وقد يستجد لفظٌ ثم يندثر في عصر يليه.

تأمَّل ما يأتي:

كلمات: المسلم، والمؤمن، والكافر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والظهار، والعدة، والحضانة، والنفقة[٣]، والاصطلاحات التي اقتضتها العلوم اللغوية كالنحو والعروض والإعراب، وغيرها كثير[٤]، كلها أخذت دلالات جديدة في العصر الإسلامي، لم تستعمل فيها من قبل.

ومن المصطلحات الإدارية: (الخليفة)، فقد كانت تعني مَنْ خَلَفَ غيره بوجه عام، ثم أصبحت تُطلق على من يخلف النبي، وأول الخلفاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) «في اللهجات العربية» (٣١).

(٢) «أبحاث في العربية الفصحى» (٢٢٠).

(٣) انظر «اللغة العربية كائن حيّ» (٣٦)، و«الزينة في الكلمات الإسلامية العربية» (١٤٦).

(٤) «اللغة العربية كائن حيّ» (٣٧).

وكذلك مصطلح (الدولة)، فقد كان يعني انقلابَ الزمانِ والعُقْبَةَ في المال والفتحَ في الحرب، ثم دَلُّوا به على الملك ووزرائه ورجال حكومته، ولم يكن هذا معروفًا من قبل(١).

وقد يكون للفظ معنى لغوي وثان عروضيّ وثالث دينيّ.

وعلى مستوى التراكيب، استجدت تراكيب مثل: «أطال الله بقاءك»، فيُقال: أول من استعمله سيدنا عمر رضي الله عنه، قال ذلك لسيدنا علي رضي الله عنه(٢).

واستجدَّت كلمة (الحاجب)، ففي الأصل كانت تدلُّ على السرِّ والمنع، ثم استعملت للحارس الذي يكون مع الخليفة وهو أصغر رجال الدولة، ثم بعد ضعف الخلفاء صار الحاجب سيدًا ومستشارًا بمستوى الوزير(٣). أما الآن فقد اندثر هذا المصطلح.

وكلمة (**راتب**) كانت تستعمل بمعنى الشيء الثابت الدائم، ثم أصبحت تستعمل للمال الذي يتقاضاه الموظف(٤).

وكلمة (**الأمن**) مصدر أَمِنَ، كانت تُستعمل بمعنى (الاطمئنان) وهو ضد الخوف(٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ**

(١) «اللغة العربية كائن حيّ» (٤٠ – ٤١).
(٢) «اللغة العربية كائن حيّ» (٣٧).
(٣) «اللغة العربية كائن حيّ» (٤١).
(٤) «لسان العرب» (رتب).
(٥) «الصحاح» (أمن ٥٧).
(٦) سورة البقرة: ١٢٥.

﴿ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١]، ثم أصبحت تُطلق على أجهزة أمنية مُلحقة بوزارة الداخلية تُعنى بالسلامة والأمن في البلاد. ورجال الأمن: الشرطة[٢].

وكلمة (**فترة**) كانت تُستعمل قديمًا بمعنى (الضَّعْف) يقولون: أصابتني فترةٌ فاضطجعت. وبمعنى (الانقطاع)، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣]، ثم استعملت في عُصور متأخرة بمعنى (المدَّة تقع بين زمنين)[٤] يقولون: (وبعد فترة سبع سنين، وفترة الاختبارات، وفترة السفر).

وكلمة (**شاطر**) كانت تُستعمل بمعنى (الذي أعيا أهله خُبْثًا)[٥] أو بمعنى (التائب من معصية والده). ثم استعملت بمعنى (الفَهِمُ المتصرف)[٦]. وتُستعمل الآن بمعنى (الماهر في تصرفاته). ولعل هذا الاستعمال الأخير من باب الوضع الجديد، وليس فرعًا عن المعنى السابق.

وكلمة (**جَوَّال**) كانت تُستعمل بمعنى (الفرس اللَّيِّن الرأس)[٧]، قال امرؤ القيس[٨]:

ولَم أَشْهَدِ الخيلَ المُغِيرةَ بالضُّحا على هَيْكَلٍ نَهْدِ الجُزارَةِ جَوَّالِ[٩]

---

(١) سورة الأنعام: ٨٢.

(٢) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (أمن ١٢٣).

(٣) سورة المائدة ١٩.

(٤) «المعجم الوسيط» (٦٧٢).

(٥) «الصحاح» (شطر ٥٤٨).

(٦) «المعجم الوسيط» (٤٨٢).

(٧) «تاج العروس من جواهر القاموس» (جول ٢٨: ٢٥٢).

(٨) وعلَّق شارح الديوان: الجوَّال: النشيط السريع في إقباله وإدباره.

(٩) «ديوان امرئ القيس» (٣٦).

ثم أصبحت تُطلق على جهاز الاتصال الهاتفي المتنقل[١]، وهذا الاستعمال من باب الوضع الجديد، وليس فرعًا عن المعنى السابق؛ لأنه مأخوذ من الفعل (جَال) بمعنى تنقَّل، ولعلنا نعدُّ الكلمة من المشترك اللفظي.

وكلمة (**السيارة**) كانت تُستعمل بمعنى (القافلة)[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ (المائدة ٩٦)، ثم أصبحت تُطلق على المركبة ذات العجلات الأربع والمحرك الذي يعمل بالوقود[٤]، وهذا من باب الوضع الجديد.

وكلمة (**الشَّنَب**) كانت تُستعمل بمعنى (بَرْدُ الفمِ والأسنان)[٥]، وهي صفة مدح لجَمالها وعذوبتها، ثم أصبحت تُطلق على الشارب مجازًا[٦].

وكلمة (**شهادة**) كانت تُستعمل بمعنى (الخبر القاطع)[٧] الذي رواه شخص بحسب ما رأى يقينًا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[٨]، ثم أصبحت تُطلق على وثيقة مدرسيَّةٍ تُثْبِتُ النَّجاحَ في مرحلةٍ من المراحل الدراسيَّة.

---

(١) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (جول ٤٢٤).

(٢) «الصحاح» (سير ٤٣٦).

(٣) سورة يوسف ١٩.

(٤) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (سير ١١٤٨).

(٥) «الصحاح» (شنب ٥٦٤).

(٦) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (شنب ١٢٣٨).

(٧) «الصحاح» (شهد ٥٦٦).

(٨) سورة البقرة ٢٨٣.

وكلمة (**الجلاء**) كانت تُستعمل بمعنى (الوضوح أو الخروج من البلد)[١]، أصبحت تُطلق على (الجلاء المدرسي)، وهو وثيقةُ النجاحِ المدرسيَّةِ بلهجة أهل بلاد الشام.

وكلمة (**ممتاز**) استعملت سابقًا بمعان تدلُّ على التفرُّق والعَزْل وظُهُور العَضَلِ، فيُقال: امتازَ القومُ: تفرَّقوا في النَّواحي، ورجل مَيِّزٌ: شديدُ العَضَلِ يَتَمَيَّزُ لَحْمُهُ[٢]، ومِزْتُ الشَّيءَ أَمِيزُهُ مَيْزًا: عَزَلْتُهُ وفَرَزْتُهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٣]، وامتازَ القومُ: إذا تميَّزَ بعضُهم عن بعض[٤]، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[٥][٦]، وبمعنى التقطُّع والانفصال[٧]، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[٨]، ثم أصبحت تُطلق على الشخص المتفوِّق على غيره في الدراسة أو العلم أو الصناعة[٩]، أو على المتفوق على غيره في صفة من الصفات الحسنة، كفلان يتميَّزُ عن فلان بالكرم.

وقد استجدَّت كلماتٌ كثيرة في العصور المتأخرة، مقتبسة من اللغات الأجنبية، مثل: سكرتير، وقُنْصُل، وبُورْصَة، وبنك (فرنسية)، وطابور (تركية)،

---

(١) «الصحاح» (جلا ١٧٩).
(٢) «المحيط في اللغة» (ميز ٩: ١٠٧).
(٣) سورة يس ٥٩.
(٤) «الصحاح» (ميز ١٠١١).
(٥) سورة آل عمران ١٧٩.
(٦) «لسان العرب» (ميز ٧: ٢٠٨).
(٧) «المفردات في غريب القرآن» (ميز ٤٧٨).
(٨) سورة الملك ٨.
(٩) «معجم اللغة العربية المعاصرة» (ميز ٢١٤٤).

وفاتورة (إيطالية)، وغيرها كثير[١].

ويدخل في ذلك الرُّتب العسكرية، كاللواء، والفريق، والعَمِيد، والعَقِيد، والمُقَدَّم، والمُلازِم.

ومن التعبيرات الاصطلاحية[٢]:

(فلانٌ خارجَ التغطية) هذا المصطلح لم يكن موجودًا قبل عشرين سنة، وعندما انتشرت أجهزة الاتصال المحمولة (الجوالات) التي يُبَثُّ فيها إمكانيةُ الاتصال من خلال أبراج تنتشر في الطرقات وتُغَطِّي المُدُن بهذا البَثِّ، وأحيانًا يَضْعُفُ الاتصالُ أو ينعدم بسبب عَدَمِ وُجُودِ أبراج، وهذا يكون في بعض القُرَى أو في بعض طُرُقات السَّفر أو في الطائرة عندما تكون في الجَوِّ، فينقطع الاتصال مِنَ الجوال وإليه، فيقولون: (الجَوَّالُ خارج التغطية) وهذا يؤدي إلى عدم حصول الاتصال معه، ثم استعير المصطلح لمن يتحدثون إليه ولا يستوعب الكلام أو يظهر بمظهر النائم أو المتغافل فيقولون له: (أنت خارج التغطية) أو (هو خارج التغطية).

(فلانٌ من زمن الطيبين) هذا المصطلح شاع فجأة خلال المدة الأخيرة التي قد لا تتجاوز سنتين بين الشباب في سن الثلاثين أو الأربعين، فعندما يتحدثون عن أيام صباهم أو الأدوات التي كانوا يستعملونها في المدارس، أو عن أسلوب حياتهم الاجتماعية وبساطتها، فيقولون: كان هذا في زمن الطيبين، وعندما يرون شخصًا يتعامل مع الآخرين بقلب سليم دون مكر أو خداع بِغَضِّ النظر عن عمره يقولون: هذا من زمن الطيبين. ثم شاع المصطلح عند الصغار الذين هم في العقد الثاني من العمر، وأصبحوا يطلقونه على من هم أكبر منهم ممن لا يتعامل بأساليبهم الحديثة

---

(١) «اللغة العربية كائن حيّ» (٧٥ – ٧٨).

(٢) هناك معاجم عِدَّة متخصصة في العبارات والتراكيب والتعبيرات الاصطلاحية، أودت بعضها في المقدمة.

أو ممن لا يعرف مقاصد كلامهم وألغازهم، فيقولون عنه: هذا من زمن الطيبين، ثم شاعت في المقالات الصحفية وأوساط المثقفين.

وبذلك يتبيَّن لنا أنَّ المفردات اللغوية غير مقتصرة على كتاب معيَّن أو معجم واحد، أو معاجم دُوِّنت في عصور محدَّدة، بل هي متجددة ومتطورة، ويحتاج متعلم اللغة العربية إلى الاطلاع على المعاجم الجديدة والبحوث المعاصرة ومخالطة المتحدثين بالعربية ليمكنه ممارسة التحدّث والفهم باللغة العربية في هذا العصر.

فمثل عبارة (زمن الطيبين) لا يمكن فهمُها من خلال المعنى المعجميِّ لكلِّ لفظ، وقد يقول قائل: (وهل نحنُ في زمنِ الأَشْرار؟) ظنًّا بإرادة المعنى المعجميِّ للمفردات. وهي في حقيقتها لا يُراد بعكسها الأشرار، إنما يراد الذين تبتعد حياتهم عن البساطة والمُسامحة، أو القدماء بوجه عام.

(فلانٌ يحتاج إلى فورمات) انتشر هذا المصطلح بعدما شاع استعمال الحواسيب الآلية، فيسمعون الفني المتخصص في الصيانة يقول لهم: الجهاز متعطل ويحتاج إلى فرمتة، و(Format) كلمة إنجليزية تعني (إعادة التهيئة)، وإعادة التهيئة تُعمل للجهاز عندما يتعطل فلا يستجيب للأوامر وتتداخل فيه المعلومات ولا يعمل بالشكل الصحيح المطلوب، فاقتبسوا هذه العبارة لمن يُخَلِّطُ في المعلومات والأفكار، ولم يقولوا: (فلان يحتاج إلى إعادة تهيئة) إنما استعملوا اللفظ الأجنبيَّ الشَّائع.

والصواب أنْ نُعَدِّل اللفظَ إلى (فلان يحتاج إلى إعادة تَهْيِئَة)؛ لتبقى كلماتُ العبارةِ كلُّها عربية.

المبحث الثاني
النظام اللغوي في اللغة العربية الفصحى

أهدف من هذا المبحث إلى إيضاح أهمية السياق والمستوى اللغوي عند القراءة في كتب التراث لتحديد الدلالة الدقيقة للعبارات.

النظام اللغوي هو قواعد اللغة صوتًا، وصرفًا، ونحوًا، ودلالةً، وأسلوبًا، وهناك قواعد عامة يدركها من نشأ في بيئة اللغة الواحدة، ويستطيع تعلُّم هذا النظام والتفاهم مع أفراد مجتمعه، وبالمقابل هناك قواعد خاصة تظهر للدارسين والمتخصصين.

أما التوصيف الخاص للغة كالإعراب والتغيُّرات النحوية والصرفية وغيرها فلا يدرك هذا التوصيف سوى الدارس له.

فالفرد العاميّ في هذا العصر يتقن اللغة وظيفيًّا، تحدثًا وسماعًا، وقراءةً وكتابةً، لكن لا يدركُ الجانب القواعديَّ لها، ذلك الجانب الذي يهمّ المتخصصين في تعليم اللغة، وأعني به المستويات اللغوية (الصوتي، والصرفي، والمعجمي، والنحوي، والبياني).

فمثلًا: شخص يقرأُ من ورقة كلامًا مكتوبًا فيها، ويسمعه اثنان، عاميٌّ ومتخصص في تعليم اللغة، فالعاميُّ يفهمُ المعنى العام من النص، والمتخصص يفهم المعنى إضافة إلى قدرته على تحليل التراكيب والمفردات وحلّ المشكلات.

وهذا إيضاح مختصر للمستويات اللغوية:

المستوى الصوتي: فلكل حرف في اللغة العربية صوتٌ خاصٌّ به ومخرَجٌ وصفةٌ، فللباء صوتٌ، وللتاء صوتٌ، وللحاء صوتٌ، وللجيم صوتٌ... إلخ. فعندما

ينطق أحدٌ كلمةَ (نَظَرَ) فإنَّ لها معنى يختلفُ عن (نَضَرَ)، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١]، فالنَّاضرُ بالضاد الغصنُ الناعم، يُقال: غُصْنٌ ناعِمٌ ناضِرٌ، ونَضِرَ، والنُّضْرةُ والنِّعْمَةُ. تقول: نَضَّرَ الله وَجْهَ فلانٍ إلى نعمته وحسَّنه[٢].

أمَّا النَّاظرُ بالظاء فالنقطة السوداء التي تكون في سواد العَيْن، والناظر أيضًا المُبْصِر. تقول: نظرتُ الشيء بمعنى النظر[٣].

فالضاد مخرجها الصوتي ما بين حافتي اللسان مما يحاذيها من الأضراس العليا[٤]، وعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك الأعلى متخذًا شكلًا مقعرًا[٥].

والظاء مخرجها الصوتي ما بين ظهر اللسان مما يلي رأسه وبين رأسي الثنيتين العُلْيَين[٦].

وفي بعض اللهجات ينطقون الضادَ ظاءً[٧]، وفي لهجات أخرى ينطقونه دالًا. وقد بيَّن العلماء كراهة الصلاة خلف من يبدل الضاد ظاءً في فاتحة الكتاب[٨].

وإذا نَطَقَ أحدٌ (إيَّاك) بتشديد الياء فإنَّ معناها يختلف عن (إيَاك) بتخفيف

---

(١) سورة القيامة ٢٢ – ٢٣.

(٢) «الفرق بين الظاء والضاد» (١٥٤).

(٣) «الفرق بين الظاء والضاد» (١٥٣).

(٤) «جهد المُقِلّ» (١٣٠).

(٥) «الأصوات اللغوية» (٥١).

(٦) «جهد المُقِلّ» (١٣٤).

(٧) «الأصوات اللغوية» (٥٢).

(٨) انظر «الكافي في فقه الإمام أحمد» (١: ٢٩٥). و«مواهب الجليل مواهب الجليل في شرح مختصر خليل» (٢: ١٠١).

الياء[١]، قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٥)، وهذا الاختلاف في المعنى أدَّى إلى منع الفقهاء الصلاة خلف مَنْ يُخَفِّفُ ياء (إياك)[٢].

فلصحَّة الصوت أهميةٌ أساسيةٌ في صحَّة الكلمة والجملة وإيضاح المراد منها، وإلا لتغيَّر المعنى ووقع المتحدث في الخطأ.

أمَّا المستوى الصرفي: فإذا جُمِعت الأصوات اتخذت هيئات وقوالب وأبنية مخصوصة على مثل كلمات الأوزان: (مَفْعَل مكتب، مِفْعَال مِنْظار، مَفْعُول مشكور)، وأبنية اللغة العربية مطردة، ولها قواعد معينة، فهناك طريقة لصياغة اسم الفاعل من الثلاثي، وطريقة لصياغته من غير الثلاثي، وهكذا اسم المفعول، والجموع، والنسب، والمصادر، وغيرها[٣].

ووَصْفُنا لكلمةٍ ما بأنها اسم فاعل أو اسم مفعول هو وصف صرفي لصيغة الكلمة، وهو مختلف عن المعنى الدلالي أو الإعراب.

مثال لأهمية ضبط المستوى الصرفي: لو قرأ أحدٌ قولَه تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[٤] بفتح الذال في (للمكذبين) لاختلف المعنى المراد من اسم الفاعل إلى اسم المفعول.

وكذلك كلمة (دافع) قد تكون فعل أمر في مثل: (دافعْ عن المظلوم)، أو اسم فاعل في مثل: (زيدٌ دَافَعَ عن المظلوم).

---

(١) إيَا: ضوء الشمس. انظر «تفسير القرآن العظيم» (١: ٢١٤) عند تفسير آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ في سورة الفاتحة، وإيَا الشمس: ضوؤها وشعاعُها وحُسْنُها، وإيَا النباتِ: حُسْنُه وزَهْرُهُ. «المعجم الوسيط» (٣٥).

(٢) «عيون المسائل» (١٦٩).

(٣) انظر «علم الصرف» (١٢ – ١٥).

(٤) سورة المرسلات: ١٥.

أمَّا المستوى المعجمي: فعندما نقرأُ جملةً فيُشْكِلُ علينا معنى كلمة فإننا نبحث عن معناها في المعجم.

ويرتبط المستوى المعجمي بالمستويات الأخرى، فمن شواهد ربط المستوى المعجمي بالصرفي ما ورد في قوله تعالى على لسان المشركين: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾، فالصيغة الأصلية (عجيب)، وقد عدل القرآن الكريم عنها إلى (عُجاب) التي تعدُّ من صيغ الأدواء، مثل الصُّداع والزُّحار والسُّعال، مما قد يعني أنَّ المشركين أرادوا الإيحاء بأنَّ ما جاء به النبي ﷺ من الأمر بالتوحيد كان مكروهًا عندهم كراهية الدَّاء[1]، وقيل: العُجابُ الذي قد تجاوَزَ حَدَّ العَجَبِ[2].

فعند ربط المستوى المعجمي بالمستوى الصرفي وهو وزن (فُعال) الخاص بصيغ الأدواء كالصُّداع والسُّعال فَهِمْنَا دلالةً أكبر وهي اتهام المشركين لنبينا ﷺ بِداءٍ يُثير فيهم التعجُّبَ.

فكلمة (عُجاب) أدَّت دلالة على المستوى الصرفي إضافة إلى دلالتها على المستوى المعجمي.

ومن أمثلة علاقة المستوى الصرفي بالمعجمي كونُ بعض الصيغ الصرفية تقترن بمعانٍ مخصوصة، فصيغة (مِفْعَل) تدل على الآلة، وصيغة (مَفْعَل) تدل على المكان، وصيغة (فِعالة) تدل على الحرفة، و(فُعال) تدل على المرض.

فيُستدل على معنى الكلمة من خلال الصيغة الصرفية، وعندما نسمع كلمةً

---

(١) «المظاهر الصرفية وأثرها في بيان مقاصد التنزيل» (١٥٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن والمُبَيِّن لما تضمَّنه من السُّنة وآي الفرقان» (١٨: ١٣٢).

ولا نعرفُ معناها فيمكننا من خلال الوزن أن نستدلَّ على معناها أو على جزئه، فإذا سمعنا كلمة (طَبابة) ولم نعرف معناها نجد أنَّ جزءًا من المعنى يدلُّ عليه البناء الصرفي، وذلك أنها تدل على حِرْفة الطب. ومثل ذلك صيغة (ذهان) فتدل من صيغتها على أمراض تتعلق بالذهن والذاكرة.

وعند قراءة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾[١] يمكن تحديد معنى كلمة (نَهَر) من خلال المعجم، فالنَّهَر هو الضياء والسعة[٢]، ومن خلال آيات أخرى نأخذ دلالة ثانية كقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية[٣] وعلى ذلك يكون المعنى: الأنهار التي تجري والسَّعَة والضياء.

فربط المستوى المعجمي مع السياق والآيات الأخرى حدَّد الدلالة المرادة.

أمَّا المستوى النحوي: فيشمل التركيب والإعراب، فمثل: (زيدٌ كلَّم محمدًا) و(محمدٌ كلَّم زيدًا)، الأبنيةُ واحدةٌ، والأصواتُ في بِنْيَةِ الكلمات واحدة، ويبقى الاختلاف في إعراب (زيد) و(محمد)، وهناك اختلاف في التركيب في الجملتين، أدَّى إلى اختلاف المعنى الدلالي والإعراب.

ونقل النحويون عن بعض الفقهاء أنّ الرجل إذا قال: (أنا قاتلُ أبيه) لَزِمَهُ القصاص؛ لأنه اعترافٌ بحصول القتل في الزمن الماضي، بخلاف: (أنا قاتلٌ أباه)

---

(١) سورة القمر ٥٤.

(٢) «الصحاح» (نهر ١٠٧٢).

(٣) سورة محمد: ١٥.

فإنه لا يلزمه شيء؛ لأنه بمثابة التهديد[١]. فبوجود التنوين أو تركه يتغيَّرُ المعنى.

وإذا قال أحدهم: (كم قومُك ذاهبون؟) فقومك: مبتدأ. وذاهبون: خبره. ويكون السؤال عن عدد الأيام. وإذا قال: (كم قومُك ذاهبين؟) فكم: مبتدأ. وقومك: خبره. وذاهبين: حال. ويكون السؤال عن عدد القوم في حال ذهابهم[٢].

وإذا قال أحدهم: (كم نخلُك حاملاتٌ؟) كان السؤال عمَّا حملتْ من التَّمر. وإذا قال: (كم نخلُك حاملاتٍ؟) كان السؤال عن عدد النَّخل في حال حَمْلِها[٣].

والكلمات مثل: (مختار، معتاد، محتلّ) تقعُ اسمَ فاعلٍ واسمَ مفعول، والنظر في السياق النحويِّ هو الذي يُحَدِّد الصيغةَ المُرَادَة.

فاسم الفاعل نحو: محمد مختارٌ أصدقاءه، زيدٌ معتادٌ الأمر، المحتلُّ يَسْتَوْلي على المكان.

واسم المفعول نحو: سعيدٌ مُختار ليُعْطَى جائزةً، الأمرُ مُعتادٌ عليه.

فالذي حدَّدَ نوعَ الصيغةِ الصرفيَّةِ المرادةِ للكلمة هنا هو التركيبُ النحويّ.

ومن أمثلة علاقة المستوى الصرفيّ بالمستوى النحويّ كلمة (ظهور) فلا يمكن أن يتحدد المراد منها أ(جمع ظَهْرٍ) هي أم (مصدرُ ظَهَر) إلا عندما تكون في تركيب نحويّ، نحو: (ظُهورُ النتائج في نهاية العام – حَمَل الرجالُ الحقائبَ على ظهورهم) فمن خلال الجملتين يمكننا تحديد المراد من كلّ كلمة.

أمَّا المستوى البياني: فقديمًا عندما يريدون التعبير عن كَرَمِ أحدٍ بأسلوبٍ غيرِ

---

(١) «الكافي شرح الهادي» (١٣١٦).

(٢) «الكافي شرح الهادي» (١٥١٩).

(٣) «الكافي شرح الهادي» (١٥١٩).

مباشرٍ وفيه مبالغة يقولون: (فلانٌ كثير الرماد).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾[١] فقد أنزل التقوى، أي: العمل الصالح أو خشية الله - وهي أمرٌ معنويٌّ - منزلة اللباس الذي يستر الإنسان لما فيها من الحفظ[٢].

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾[٣] فقد مثَّل للشُّحِّ والإمْسَاكِ بِغَلِّ اليَدِ إلى العُنُقِ، ومثَّل للإسراف ببسط اليد، وهو تَمْثِيلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى تَخَيُّلِ اليَدِ مَصْدرًا لِلبَذْلِ والعَطاءِ، والمراد أن يكون الإنسان وسطًا بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو العدل والحكمة[٤].

وكقول «المتنبي»[٥]:

أنا الذي نَظَر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

يعني أنَّ شعرَه سارَ في الآفاق، واشتهر حتى تحقَّقَ عند الأعمى والأصَمّ، فكأنَّ الأعمى رآه لتحققه عنده، وكأنَّ الأصمَّ سمعه.

فهذه التراكيب وأمثالها لا يمكن فهم دلالاتها من غير معرفة بأصول علم البيان.

أمَّا المستوى السياقي: وهو ما يُصاحبُ العبارة من حال المتحدث، أو الزمن، أو ظروف الزمن، كالحالة السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والدينية.

---

(١) سورة الأعراف ٢٦.

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» (٤: ٣٤٤).

(٣) سورة الإسراء ٢٩.

(٤) «التحرير والتنوير» (١٥: ٨٤).

(٥) «شرح ديوان المتنبي» (٤: ٨٣).

ولكل مستوى من هذه المستويات علاقة بالمستوى الآخر، فاللغة وَحْدَةٌ متكاملة.

وهذا مثال لتحليل كلمة (مسجد) في تركيب (ما أقدم مسجدٍ في الإسلام؟):

فهي على المستوى المعجميّ: بيت الله يؤمُّهُ المسلمون للصلاة؛ لأنه يبيِّن معنى الكلمة.

وهي على المستوى النحويّ: مضاف إليه مجرور وعلامة جرِّه الكسرة؛ لأنه يبيِّن علاقة الكلمة بغيرها في السياق، ويبيِّن حكمَ حركةِ آخرها.

وعلى المستوى الصرفيّ: اسم مكان يدل على الحدث (السجود) ومكانه؛ لأنه يبيِّن حال بِنْيَةِ الكلمة وصيغتها.

ومن الأمثلة كذلك: إذا قال الطفل لأمه: (الجوُّ بارد) وهو داخل المنزل فهو يريد إغلاق جهاز التكييف، فالجملة المكونة من مبتدأ وخبر قد يُراد منها الطلب[1]، وإذا قال لها ذلك وهو في الشارع فقد يريد منها أنْ تلبسه معطف الصُّوف، وقد يريدُ سرعةَ العودةِ للمنزل أو للسيارة، فقرائن السياق تبيِّنُ المعنى الدقيق المراد.

وإذا قال رجل لزميله وهما يمشيان ليلًا في حديقة بمدينة حارة: (الجوُّ بارد) فهو يُظهر استمتاعه ببرودة الجوِّ ولطافته، فالذي حدَّدَ الدلالة المرادة هنا هو المستوى السياقي.

ولدى تأمَّل السياق لمعرفة الفَرْقِ بين الصيغتين (سنابل) و(سنبلات): في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٦١) وقوله

(١) «مدخل إلى اللسانيات» (٥٩).

سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ الآية[1]، نجد أنَّ صيغة جمع الكثرة (سنابل) جاءت في سياق التكثير ومضاعفة الأجور، وصيغة جمع القلة (سنبلات) جاءت في سياق التقليل ولا مقتضى للتكثير.

وهكذا نجد أنه من الضروري لتحديد الدلالة الصحيحة المرادة بدقة في أيِّ نصٍّ قرآنيٍّ أو غيره وجودُ خبرةٍ كافية للتعامل مع أدوات النصِّ ومستوياته اللغوية.

(١) سورة يوسف ٤٣.

الخاتمة

من خلال هذا البحث يتبيَّن لنا ما يأتي:

١- أنَّ طبيعة اللغة العربية منذ بدايتها هو التدرج في النشوء والتطور، وهذا التدرج مستمر إلى يومنا هذا، لا يمكن إنكاره أو إيقافه أو تغيير هذه الطبيعة، ولذلك علينا أن نكون أكثر انفتاحًا وقبولًا للجديد من الألفاظ والتراكيب ضمن معايير الفصاحة.

٢- اللغة العربية المعاصرة تختلف عن لغة القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف إلى حدٍّ كبير بما احتملته من روافد ثقافية جديدة، وهذا ليس عيبًا أو قصورًا.

٣- تطوّر اللغة العربية هو ميِّزة جيدة من ميزاتها، يدلّ على أنها لغة يمكنها البقاء دائمًا.

٤- قبولُنا للجديد من خلال استعماله وتدوينه كائنٌ بمعايير مُحكمة وليس عبثًا.

٥- أغلب ما يجري على ألسنة العرب هو لغة عربية، وله أصولُه في المعاجم، سوى ما هو صريح في عجمته كألفاظ الذين يجمعون في كلامهم بين ألفاظ عربية وأخرى أعجمية، فهذا الأعجمي لا نقبله.

ولتحقيق نتائج إيجابية في الحفاظ على نهضة اللغة العربية أوصي بما يأتي:

- إعداد المزيد من معاجم التراكيب المعاصرة، وتطويرها كلَّ عام، فالمعجم العربيّ القديم ارتبط ببيئة الصحراء وحياتها، وهذا أمرٌ تغيَّر تغيُّرًا شديدًا، فوجب أن يتغيَّر المعجم ليكون مواكبًا لروح العصر الحاضر، وكل الجهود السابقة كتكملة

المعاجم وغيرها غير كافية، وحتى معجم اللغة العربية المعاصرة انطلق من بيئة خاصة، واللغة العربية تحتاج إلى معجم عام شامل لكل البيئات.

- إطلاع الدارسين في التعليم الثانوي والجامعي على المعاجم الحديثة التي يندر أنْ يَرِدَ ذِكْرٌ لها في المناهج الدراسية الحديثة، كالمعجم الوسيط، والمعجم الكبير، والمعجم الوجيز، والمنجد، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، ومعجم الصواب اللغويّ وغيرها.
- إعداد دراسات بحثية لِتَتَبُّعِ الجديد في استعمال المفردات والتراكيب والمصطلحات في الوطن العربي، فالجديد لم يتوقف منذ القديم إلى الآن، وكان العلماء يُدَوِّنُونَ الجديد في كتبهم، مما لم تتضمنه المعاجم القديمة؛ لذلك وجد محققو الكتب ألفاظًا لا تتضمنها معاجم العربية.
- دعم المشاريع الجادَّة في العناية باللغة العربية الفصحى وحمايتها، كالعناية بالتخطيط اللغويّ، والمعاجم التاريخية والمصطلحية.

قائمة المراجع

١- أبحاث في العربية الفصحى، د. غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٢- الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، بدون تاريخ.

٣- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة د. نايف خرما، سلسلة كتب عالم المعرفة (٩)، ١٩٧٨م.

٤- الاقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي، ت د. محمود بن يوسف فجال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الأولى، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

٥- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، ت د. محمود الطناحي، راجعه عبد السلام محمد هارون، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٦- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، بدون تاريخ.

٧- تطور اللغة العربية المعاصرة بين ضوابط القدماء وجهود المحدثين، د. محمد عبد الفتاح العمراوي، ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية، دبي، الجزء الثالث، الصفحات (٤٢٦ – ٤٣٨).

٨- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ت مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة، الجيزة، بدون تاريخ.

٩- الجامع لأحكام القرآن والمُبَيِّن لما تضمَّنه من السُّنة وآي الفرقان للقرطبي، ت د. عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

١٠- جهد المُقِلّ للمرعشي، ت د. سالم قدوري الحمد، دار عمار، الثانية، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

١١- الخصائص لابن جني، ت محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بدون تاريخ.

١٢- ديوان امرئ القيس، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الخامسة، بدون تاريخ.

١٣- ديوان البحتري، ت حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

١٤- دور الكلمة في اللغة لستيفن أولمان، ترجمه د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، بدون تاريخ.

١٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١٦- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي، ت حسين بن فيض الله الهمداني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

١٧- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

١٨- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسُنَنِ العرب في كلامِها لابن فارس، علّق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٩- الصحاح للجوهري، اعتنى به خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٢٠- علم الصرف، د. نهاد الموسى، ود. عودة أبو عودة، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٢١- علم اللغة لـ د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، السابعة، بدون تاريخ.

٢٢- الفرق بين الظاء والضاد لأبي القاسم الزنجاني، ت محمد سعيد مولوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢٣- في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الثالثة، ٢٠٠٣م.

٢٤- عُيُون المسائل للقاضي عبد الوهاب المالكي، ت علي محمد إبراهيم بورويبة، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

٢٥- الكافي شرح الهادي للزنجاني، ت د. محمود فجّال، رسالة دكتوراه، آلة كاتبة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٢٦- الكافي في فقه الإمام أحمد لابن قدامة المقدسي، ت محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، وأحمد محروس جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٧- الكامل في التاريخ لابن الاثير، ت عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٨- كلمات القرآن التي لا نستعملها - دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية لـ د. محمد الجوَّادي، دار الشروق، الثانية ١٩٩٧م.

٢٩- لسان العرب لابن منظور، الطبعة الميرية، بولاق، مصر، الأولى، ١٣٠٠هـ.

٣٠- لغتنا والحياة، د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" دار المعارف، مصر.

٣١- اللغة العربية كائن حيّ لجرجي زيدان، دار الجيل، بيروت، الثانية، ١٩٨٨م.

٣٢- المحيط في اللغة لابن عباد، ت محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بدون تاريخ.

٣٣- المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء، المطبعة الحسينية المصرية، الأولى، بدون تاريخ.

٣٤- مدخل إلى اللسانيات لـ د. محمد محمد يونس علي، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، الأولى، ٢٠٠٤م.

٣٥- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٣٦- المظاهر الصرفية وأثرها في بيان مقاصد التنزيل، دراسة نقدية لبعض الترجمات الفرنسية والإنجليزية، د. سليمان علي، بحث منشور في مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الثامن، السنة الرابعة.

٣٧- المعارف لابن قتيبة، ت د. ثروت عكاشة، دار المعارف، الرابعة، بدون تاريخ.

٣٨- معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمُوَلَّد، لأحمد أبو سعد، ١٩٨٧م.

٣٩- معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة، د. محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٤٠- معجم اللغة العربية المعاصرة، إعداد د. أحمد مختار عمر، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، القاهرة، الأولى، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

٤١- معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة، لمحمد حسن عقيل

موسى، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٩م.

٤٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الرابعة، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٤٣- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، بدون تاريخ.

٤٤- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل للحطَّاب الرعيني، دار الفكر، الثالثة، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤٥- وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولدِ قحطانَ بنِ هود، المنسوب إلى دعبل بن علي الخزاعي، برواية علي بن محمد بن دعبل الخزاعي، ت د. نزار أباظة، دار البشائر، دمشق، الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٤٦- الوضع اللغوي وهل للمحدثين حقٌّ فيه؟ لأحمد حسن الزيات، مقال بمجلة الرسالة، العدد ٨٦٢، ١٩٥٠م.

Linguistic divergence (openness) and its impact in controlling the Arab tongue

Prepared by Dr. Mohammad bin Mahmoud fajjal

Associate professor in the Arabic language, grammar

Preparatory Year - King Saud University

Abstract

Many non - native learners of Arabic face serious understanding problems insofar as two types of linguistic forms are concerned. The first of these relates to those linguistic forms that are widely used by speakers of Arabic and by the media but which are not recorded in dictionaries, and the second type has to do with those expressions whose deep meaning is not readily accessible. I have treated these two problems in two sections: In the first one, I have discussed the issue of the linguistic evolution from phonetic, semantic and syntactic perspectives and the necessity to readily accept new linguistic forms, record them, up to the standards, and make them available to learners of Arabic. In the second section, I have approached the nature of the linguistic system of the Arabic language as well as the role played by both the form and context in determining the meaning of a word and the expansion of its semantic scope.

Key words:

Linguistic openness, linguistic evolution, the evolution of the Arabic language, Teaching Arabic to foreigners, terminological expressions, linguistic levels, general dictionaries.